الخوف بوصفه نتاجًا للشر السائل:
قراءة في رؤى زيجمونت باومان

أ.م.د أكرم مطلك محمد (*)

م.م مصطفى مرشد جبير

ملخص

يتناول هذا البحث مفهوم الخوف السائل لدى المفكر البولندي زيجمونت باومان، عبر فحص مخرجات هذا المفهوم؛ إذ يعتقد باومان أن الخوف وحالة اللا يقين هي إحدى نتاجات الشر السائل. كما تكشف هذه الورقة عن مفهوم الموت باعتباره المنبع الأساس لمخاوف الإنسان، والكيفية التي تعامل معها العقل الحداثي وما بعد الحداثي مع هذا الحدث، علاوة على توضيح فكرة اللابديل، على اعتبار أن الوضع البشري المعاصر لا يمكنه الفكاك من حالة التشتت والضياع التي يعيشها.

الكلمات المفتاحية: (الخوف السائل، الشر السائل، الشر الصلب، الموت، اللا بديل).

(*) الجامعة المستنصرية- كلية الاداب- قسم الفلسفة

المقدمة

منذ البدء كان الإنسان محاطًا بالكثير من المخاطر التي كانت تهدد أمنه ووجوده، لذلك فهو في سعي دائم إلى التخلص من تلك المخاوف وإحساس والقلق الذي يخالج ذاته بشتى الطرق، لذلك فهو بطبيعة الحال في حالة بحث مستمرة عن اليقين. يعد زيجمونت باومان عالم الاجتماع والفيلسوف البولندي من بين المفكرين الذين تناولوا هذا الهم الوجودي بالدراسة والبحث، من خلال ما أنتجه من مؤلفات تناولت مفاهيم كالحياة والخوف والشر والموت وما إلى ذلك.

لا يمكن للمطلع على التاريخ الفلسفي إغفال الدور الذي أبرزه المشروع الحديث في محاولته لحل شفرات هذا العالم وغموضه، بعد ما كان الإنسان يرجعها إلى اسباب غيبية مفارقة. وقد يكون المشروع الحديث من بين المشاريع التي حققت ما كان يطمح له الإنسان بنسبة كبيرة، ذلك بواسطة فرض العقل والنظام كأداتين يمكن من خلالهما السيطرة والكشف عن خبايا

وأسـرار هذا العالم، وما يخفيه من شرور تهدد وجود الإنسان وتقلق أمنه وتستنفر سكينته.

يعتقد باومان أن العقل الحديث رغم ما حقق مـن إحكام وسـيطرة وكبح للشـرور التي تهدد حياة الإنسـان، إلا أنه وقف عاجـزًا أمام حدث المـوت ولغزه، فهو الذي أعطـب ماكينة العقل الحديث وكشف عجزها. لذلك سنتاول في ورقتنا هذه الكيفية التـي تعامل معها العقل الحديث مع هذا المفهوم باعتباره المنبت الأساسـي لأعظم مخاوفنـا. تلك المخـاوف التي تمتـاز بخاصية التوليد الذاتي حسب وصف باومان لها. كما لن نُغفل محـاولات العقل ما بعد الحداثي كذلك في تعاطيه مع حدث الموت.

كما سنسـعى إلـى كشـف العلاقـة القائمة بين الخوف والشـر السـائل، من خلال توضيح مفهوم الشـر السـائل عند باومـان وتمايزه عن الشـر الصلـب، ومن ثـم نحـاول الإجابة عن التسـاؤل الآتي: هل هناك إمكانية للخلاص من مخاوف هذا العالم وشـروره ولا يقينيته، أم إننا أمـام حتميـة اللابديل؟ وهـل كان باومان محقًا في ما قدمه من حلـول تتعلق بإمكانية الاندماج ضمن الجماعة باعتبارها عملية تسـاعدنا على التخفيف من مخاوفنا وتشتتنا؟

الخـوف السـائل والتوليـد الذاتـي له لدى زيجمونت باومان

لا يوجد وصف يطابق حال زماننا أكثر من القول بأنه زمان الخوف، وأنه الزمن الذي يفتقر إلـى اليقين والأمن والأمـان، فالمخاوف كثيرة ومتنوعـة ومتعـددة المصادر، يشـتمل بعضها على فئات اجتماعية وعمرية وجنسيات بعينها، ويمتد الآخر ليشـكل مخاوف تنتابنا جميعًا دون استثناء، بغض النظر عن المكان والزمان الذي نكون فيه[١].

لقد كان الخلاص من مخاوف الحياة المهمة التـي اضطلـع بها عصـر التنويـر، والتي من أجلها دشـنت مرحلة جديدة تحـاول الفكاك من غموض العالم، ومن ثم السـيطرة على الطبيعة واخضاعها، إذ إن "مهمة الحداثة إطلاق حرية التحقـق والاختيـار الإنسـاني من أسـر الغيب وعـدم الثقـة وغيـاب اليقيـن في القـدرة على سـيطرة الإنسان على هذا العالم، والقيام بحرب غير مقدسة لإخضاع الطبيعة بالعلوم، وبالتالي رفع مسـتوى الحرية وضمان الفردية وإخراج المرء من القفص الحديدي للتقاليد"[٢].

يسـعى المشـروع الحديـث إلـى تحقيـق النظـام، وفي حال تحرينا الدقة فيمكن القول إن المرادف الفعلي للحداثة يمكن أن يكون النظام، فالعقـل الحديث في كل ممارسـاته سـواء على المسـتوى السياسـي أو الاجتماعي، إنما يروم الوصول إلى حالة النظام التي يحكمها العقل[٣]. والنظام هنـا قرين الصلابـة والصرامة، وفي ذات الوقـت نقيـض للإبهـام، ولا توجد منطقة محايـدة بيـن الاثنين. والحق فإن هـذا من نتاج المشـروع الحديـث، بمعنى قابليتـه على انتاج الثنائيـات المتعارضة، ففي حـال غياب النظام سوف لن يكون هناك بديل سوى الإبهام، وبذلك تنتفـي فرضيـة الوسـط الذهبي(*)التـي ابدعها أرسطو(**).

من جهة أخرى يمكن أن يكون نقيض النظام هو الفوضـى، غير أن باومان لا يفهم الفوضى بالمعنى السـلبي، وإنما ينظر لها على أنها حالة المقاومـة التي تتحـدى المنطق وتكـون بمثابة المختلف الذي ينتج عنه الإصلاح والتجديد[٤].

إذن، ما تريده الحداثة هو الوصول إلى حالة اليقين النهائية التي يمكن أن يطمئن لها الوضع البشري، ومن ثم القضاء على مصادر الخوف المبهمة، من هنا يذهب باومان إلى أن ذلك ما وجدت الحداثة من أجله، وعليه فهو يصرح بأن "الممارسة الحديثة النموذجية، ولب السياسة الحديثة، وجوهر الفكر الحديث، وجوهر الحياة الحديثة، هو السعي إلى استئصال الإبهام"(٥).

يقدم باومان توضيحًا لمعنى الخوف بأنه "الاسم الذي نسمي به حالة "اللا يقين" التي نعيشها، وهو الاسم الذي نسمي به "جهلنا" بالخطر، وبما يجب فعله لمنع الخطر، وبما يمكن فعله لمنعه وبما لا يمكن فعله، أو بما يمكن فعله لصده إذا لم يكن لنا طاقة بمنعه"(٦).

بالنسبة لباومان فالخوف شعور طبيعي لكل كائن حي، وهو حالة يتشارك فيها الإنسان مع الحيوان على حد سواء، ويكون باعثها خطر مفاجئ يهدد الحياة، وتنحصر ردود الأفعال إزاء مواجهة هذا الخطر بفعلين: إما الهرب أو المواجهة والدفاع عن النفس. غير أن هناك إحساس آخر بالخوف ينفرد فيه الإنسان عن سواه من الكائنات يسميه باومان "الخوف المشتق"، وهو الحالة التي تتشكل عن خبرة ماضية في مواجهة المخاطر، ويكون فيها الإنسان قد تمكن من إعادة إدراك للعالم وتعقله، ويكون لسلوكه وردود افعاله خبرات أكثر. إن إحساس الإنسان بفقدان الأمان يولد لديه قوة دفع ذاتية للخوف؛ فحتى في غياب الخطر يلجأ الإنسان إلى استجابات ملائمة من أجل مواجهة مباشرة مع الخطر(٧) ؛ "فاستجاباتنا هي التي تعيد صياغة الهواجس المخيفة باعتبارها واقعًا يوميًا يجسد كلمة الخوف المجرد، فلقد استقر الخوف الآن بالداخل، وهو يتسرب إلى أنشطتنا اليومية المعتادة، وقلما يحتاج إلى مثيرات أخرى من الخارج، فالأفعال التي يولدها يومًا بعد يوم تمده بكل الدافعية والطاقة التي يحتاجها لإعادة توليد نفسه"(٨).

يبدأ التوليد الذاتي للخوف مع اللحظة التي ندخل فيها لعبة الحماية من الخطر، وكلما ترتفع وتيرة تعزيز الدفاعات وتشديدها تتزايد طرديًا معها المخاوف وتكون أكثر عمقًا وحدة. لم يعد هناك حاجة لمثير خارجي للخوف، فبمجرد إطلاق سراح الهواجس الأمنية فلن يوقفها شيء، فهي ذاتية الدفع وتزداد بالاعتماد على نفسها؛ وعندما تكتسب قوة دفعها الخاصة، لا تحتاج إلى المزيد من الدعم الخارجي، فهي تنتج على نطاق يتزايد باستمرار، أسبابها وتفسيراتها ومبرراتها. يصبح الهوس المنتشر الذي أشعله تقديم الإجراءات الأمنية، وترسيخها وخدمتها، الدافع الوحيد اللازم لعدم اليقين، والتكاثر الذاتي للخوف والقلق والتوتر من انعدام الأمن(٩).

يرى باومان أن الخوف حالة دائمة في كل مكان وزمان، ويعده _أي الخوف_ قرين الظلام، ففي الظلام لا يمكن توقع ما سيحدث، ولا يمكن التنبؤ بما ستؤول إليه أية واقعة، والحق فإن الظلام لا يعتبر المصدر الحقيقي للخطر بقدر ما يكون المسكن الطبيعي للإحساس بالخوف واللايقين. إن حالة الخوف واللايقين هي ما حاولت الحداثة تجاوزها من خلال العلم، إذ سعت إلى بناء نسق تختفي فيه المفاجآت وتمحى فيه الأوهام، والسيطرة بواسطته على كل شيء يصدر عنه الخوف، غير أن النسق الذي أعدته بدى وكأنه يسير بنا على سكة دائرية، فنحن اليوم نقف عند نفس

النقطة التي انطلقنا منها منذ خمسة قرون، فالمكان والزمان الذي نعيش فيهما هما مكان وزمان للخوف مرة أخرى(١٠).

إن آمال عصر التنوير في صناعة حياة جديدة تكون خالية من الغموض وما يستتر خلفه من تهديدات، اصطدمت بواقع الحياة المعاش، تبددت تلك الآمال أمام السرعة التي تجري بها الحياة الحديثة السائلة، فقوة الدفع الذاتي التي يمتاز بها الخوف المشتق تجعلنا نعي أن صراعنا مع الخوف هي المهمة الأزلية لهذه الحياة(١١).

يصنف باومان الأخطار التي يخشاها المرء إلى ثلاث فئات(١٢):

١. فئة تهدد الجسد والممتلكات.

٢. فئة تهدد دوام النظام الاجتماعي والثقة به، وهو النظام الذي يقوم عليه ضمان لقمة العيش (الدخل والوظيفة)، أو تهدد بالبقاء في حالة العجز أو الشيخوخة.

٣. فئة تهدد موقع المرء من العالم _ مكانته وهويته الاجتماعية (الطبقة، والنوع، والعرق، والدين)، وبوجه أعم حصانته من الامتهان والإقصاء الاجتماعي.

يحدد باومان مجموعة من الأسباب لحالة الخوف، وهي أسباب لا تزال وستبقى مؤديةً له، أول هذه الأسباب هو الجهل: عدم معرفة ما يخبأه لنا المستقبل، ومدى ضعفنا في مواجهة الكوارث، ونوع تلك الكوارث التي ستحدث، ومن أين ستأتي. والثاني هو العجز: أو الشك في أنه لا يوجد شيء _أي شيء_ يمكننا القيام به لتجنب النوازل، أو التصدي لها عندما تقع.

والثالث هو الهوان، وهو ناتج عن السببين الأولين: إنه الانتهاك الذي يلوح في الأفق، لاحترامنا لذاتنا، ولثقتنا بأنفسنا، بمجرد اكتشاف أننا لم نقم بكل ما كان يمكن القيام به، وأنَّعدم الانتباه إلى إشارات التحذير، أو التسويف غير المبرر، أو الكسل، أو التقصير، هو المسؤول إلى حد كبير عن الدمار الناجم عن الكارثة(١٣).

يولي باومان الشعور بالعجز مكانة أكبر من بين الأسباب الدافعة للخوف، ولا يرجع ذلك إلى خطورة التهديدات في حدها، وإنما إلى الفجوة الممتدة بين خطر التهديد الحامل للخوف من جهة، وبين استجابتنا لها وتفاعلنا معها من جهة أخرى، وهذا يعني حدوث تباين وتنوع في حدة الخطر، كون استجاباتنا في ظل المجتمعات السائلة تكون فردية وفريدة، وتبعًا للطابع الفردي فسيكون هناك اختلاف بين سرعة ونوعية الاستجابة بناءً على امكانات واستعدادات الأفراد المختلفة(١٤).

إن أسباب الخوف كثيرة؛ ونظرًا لأنه من المستحيل حساب عددها وكثافاتها الحقيقية من منظور التجربة الشخصية الضيقة، يضيف باومان سبب آخر، وربما أقوى سبب للخوف، يوجزها بالعبارة الاتية: "لا توجد طريقة لمعرفة أين ومتى ستتحول كلمات التحذير إلى حقيقة متجسدة"(١٥).

يشير باومان إلى وجود تحول في الواجبات المناطة بالدولة، والمسؤولة فيها عن حماية ما يسمى "دولة الرفاه" من الهزات الوجودية المكتنزة بالمخاوف والشكوك، إذ اخذت سياسات الضمان الاجتماعي تتراجع بشكل متسارع، وهبطت إلى دون المستوى، فضلاً عن التراجع الملحوظ لمؤسسات الدفاع

"الجمعي"، مثل الاتحادات والنقابات وغيرها، وبدأت مواقع السلطة بإرسال رسائل مكتوبة بلغة جديدة تحض "الأفراد" على التحلي بمزيد من المرونة كعلاج وحيد لحالة اللاأمن، وهي بطبيعة الحال تضفي مزيدًا من اللايقين على أفراد المجتمع[١٦].

يدل هذا على انهيار الأسس التي تبنى عليها سلطة الدولة، فبعد أن ألغت الدولة المعاصرة تدخلها المنظم السابق في الأمور المتعلقة بعدم اليقين، وانعدام الأمن، الناتجين عن السوق، وبعد أن اعلنت _على العكس من ذلك_ أن إزالة القيود المتبقية على الأنشطة الموجهة للربح، واحدًا تلو الآخر، يمثل المهمة الرئيسية لأي قوة سياسية تهتم بسلامة مواطنيها، بات عليها أن تبحث عن أنواع أخرى غير اقتصادية من الضعف وعدم اليقين لتقيم عليها شرعيتها، ويبدو أن هذا البديل قد تم تحديده في صورة قضية السلامة الشخصية[١٧].

صور الوضع البشري السائل الاهتمام بالسلامة الشخصية كنوع من أنواع الحياة الحضرية والمترفة، فأصبح المنتمون إلى هذا الوضع يميلون إلى اقتناء سيارات مصفحة متعددة الاستعمال تكون آمنة لسلامتهم، فضلا عن ارتدائهم للألبسة المصفحة، والعيش في مدن مؤمنة بأسوار عالية ومراقبة على مدار الساعة، كما شاع الاستعانة بحراس شخصيين يؤمنون بواسطتهم على أنفسهم وذويهم، هذا من جانب، ومن جانب آخر، ظهر القلق من الأمراض الجسدية، فأصبح من عظيم اهتمام سكان هذه الحياة، ممارسة الرياضة، واجتناب التدخين ومعالجة السمنة المفرطة، وما عداها من أمور السلامة الشخصية. كل ذلك تم بمعية شركات الدعاية التي تستمد زيادة مبيعاتها من استشراء الشعور بالخوف وعدم الأمان[١٨].

يفترض باومان فكرة الاندماج مع الحشد كحل للتخلص من المخاوف التي تواجه الإنسان، ففي الحشد يشعر الفرد أنه يتجاوز حدوده شخصه، والفرد بهذه الحالة لا يشعر أنه يذوب، بل يتوسع، فالفرد الوحيد الذي لا يأبه له أحد يتجسد مع الحشد في صورة جمع كبير، وهو عين الانطباع التي تحاول قاعة المرايا في قصر فرساي أن تولده. إن الخوف من المجهول يدفع الإنسان إلى تجنب الاتصال الجسدي بأي شيء غريب؛ لكن وسط الحشد، يقضي على هذا الخوف، فهو السياق الذي يتحول فيه الكل إلى واحد، والواحد إلى كل، بمعنى الانتقال من الفصل والعزل إلى الدمج والمزج[١٩].

تحيلنا فكرة الحشد، إلى فكرة التضامن الاجتماعي، غير أن باومان يتساءل عن الكيفية التي يجتمع فيها المفترقين والمختلفين معًا؟ إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الظروف التي تحيط بالمجتمع السائل الذي يخضع للنزعة الفردية، تلك النزعة التي تتعارض مع الفعل التواصلي والتضامني، والتي تحارب أي رؤية لاجتماع الأفراد، فالمجتمع الخاضع للنزعة الفردية يفتت ويذيب الاواصر الاجتماعية التي تمثل أساس الفعل التضامني[٢٠]، وبذلك يسقط افتراض باومان في تجاوز الإنسان لمخاوفه.

إن الدليل على وهم افتراض باومان يتضح مع معاينتنا لتواري مصطلح الجماعة ليحل محله مصطلح الشبكة، كون الشبكات، على خلاف الجماعات، يمكن تشكيلها وإعادة تشكيلها من خلال تبادل الاتصال وقطعه، لأجل ذلك فسمتها التغير والصيرورة الدائمة،

وهي بذلك لا تهتم لمبادئ العيش المشترك التي تتبناها الجماعات وتلتزمها، ومن ثم فالشبكات لا تنظر كثيرًا إلى المبادئ الأخلاقية ولا إلى هاجس الحس المشترك، وإنما ديدنها الانفصال وقطع الاتصال والاغتراب المتبادل(٢١).

خلاصة القول إن الحياة السائلة حياة محفوفة بالمخاطر يحياها المرء في حالة من اللايقين الدائم. وأشد هاجس يساور المرء في تلك الحياة هو الخوف من أن تأخذه على حين غره، ومن الفشل في اللحاق بالمستجدات المتسارعة، ومن التخلف عن ركب السائرين، ومن إغفال تواريخ "نهاية الصلاحية"، ومن الاحتفاظ بأغراض مهجورة، ومن فقدان اللحظة التي تدعو إلى تحول في اتجاه السير قبل عبور نقطة اللاعودة.

الموت باعتباره المنبع الأساسي للخوف: من تفكيك الموت إلى تفكيك الخلود

يرى باومان بأننا مهددون بالمعاناة من عدة جهات: بدأً من اجسادنا التي لا مفر لها من الموت والفناء، إذ لا يمكنها أن تقوم بوظائفها دون الإحساس بالألم والقلق، باعتبارهما مجسات تحذير. ومن ثم من العالم الخارجي، الذي يمتلك قوة تدمير مريبة، يمكن أن يخضعنا لها. وأخيرًا من علاقاتنا بالناس، وهي أكثر إيلامًا من المنبعين السابقين، غير أنهم يجتمعون بطريقة أو بأخرى على هدف واحد، وهو: إيلام الجسد(٢٢).

إذاً فنحن نعاني طوال الوقت، ونخاف طوال الوقت من المعاناة التي قد تكون ناتجة عن التهديدات الدائمة حولنا، مع هشاشة أجسادنا، وعدم السيطرة على قوة الطبيعة الفائقة، ووجودنا مع آخرين من البشر، غير أن هذه الأخيرة أقل حدة؛ فهناك إمكانية لإصلاح وتحسين العلاقات البشرية، أكثر من سيطرتنا على الطبيعة، أو وضع حد لنقاط ضعف الجسم البشري(٢٣).

إن الخوف جزء لا يتجزأ من الوضع الإنساني. يمكننا بالفعل القضاء على معظم الأخطار المتعاقبة المسببة للخوف، واحدًا تلو الآخر، ولكننا، حتى الآن على الأقل لا نستطيع التخلص من أم المخاوف والخوف الأكبر بين جميع المخاوف: إنه الخوف الرئيسي الذي يأتي من إدراكنا بأننا سنموت، ومن ثم فنحن أمام حقيقة مطلقة مفادها استحالة الهروب من الموت(٢٤).

يقدم باومان ثلاث استراتيجيات أساسية للتعايش مع الوعي باقتراب الموت(٢٥):

١. بناء جسور بين الحياة الفانية والحياة الأبدية – بمعنى إعادة صياغة الموت باعتباره بداية جديدة (لحياة خالدة)، لا باعتباره نهاية النهايات.

٢. تحويل الاهتمام (والقلق) من الموت نفسه، باعتباره حدثًا كونيًا حتميًا، إلى «أسباب» خاصة للموت، يمكن تحييدها أو مقاومتها.

٣. البروفة المجازية اليومية على الموت في حقيقته الكئيبة المتمثلة في النهاية المطلقة، والكبرى، والقاطعة، والبائنة، حتى يمكن النظر إلى تلك النهاية، كما الموضات والصيحات المستوحاة من الماضي، على أنها ليست مطلقة بالكامل، وعلى انها قابلة للإلغاء والتغيير، فهي لا تعدو أن تكون حدثًا بسيطًا بين أحداث عدة.

سعى المشروع الحديث إلى التخلص من شعور الإحراج الذي يصاحب لحظات الموت. على عكس اجدادنا القدماء، فإننا لا نناقش الأمور القاسية والعنيفة. ونخفي في الصناديق المغلقة الأشياء التي يفعلها الآخرون على الملأ، والموت أحد تلك الأشياء التي طردناها؛ ومن ثم طردنا الإحراج وما يتبعه من مشاعر الخزي، التي تجعلنا فاقدين للإحساس عندما نواجه الموت وجهًا لوجه[٢٦].

تزدري الحداثة كل شكل من أشكال القيود وترى بأن جميع القيود غير شرعية وبالتالي فهي مهينة. يأتي هذا الموقف من الثقة المفرطة بالعلم والتقنية. من بين تلك القيود يعد الموت الإهانة المطلقة للإمكانيات البشرية، وذلك التحدي الأخير للعقل الإنساني[٢٧]. فبعد أن حققت الحداثة ما تروم التحرر منه وجدت نفسها عاجزة عن التحرر من فكرة الموت، وغدى الموت الفاضح الأكبر والمقيض للمشروع الحديث.

وضع الموت العقل الحديث أمام مأزق وجودي لا يمكن تجنبه، لذلك عمل على تفكيك الموت من كونه حقيقة طبيعية إلى مجموعة من عواقب الأفعال الإنسانية، وغدا الموت بذلك ذنب شخصي، وأصبحت حالات الوفاة التي تهدد الأشخاص قابلة للتأجيل والمقاومة، بمعنى آخر، بقي الموت أمر لا مفر منه، لكن كل حالة وفاة محددة تتوقف على شروط. صحيح أن الموت غالب ولا يقهر، ولكن حالات الوفاة نفسها أصبحت ليست كذلك، فالأطباء الذين يقفون بيني وبين موتي لا يحاربون الموت؛ لكنهم يحاربون كل حالة من حالاته الخاصة، إنهم يحاربون الأمراض المميتة[٢٨].

لأجل ذلك نادرًا ما يستعمل الأطباء عبارة «أسباب طبيعية» وهم يملأون شهادة الوفاة، بل يلجأون إلى تحديد أسباب خاصة لكل حالة وفاة، وهم بذلك يحققون الخلاص من وسم العجز وقلة الخبرة والمهارة من جهة، ويحصلون على رضا ذوي المتوفى الذين لا يقبلون بالأسباب الطبيعية كتفسير لوقوع الموت من جهة أخرى[٢٩].

لقد فكك العقل الحديث الموت وحوله من جلاد إلى حارس سجن، فقام بتشريح جثة الموت الكبيرة من الرأس إلى الذيل وحولها لإصابات بطفح جلدي مخيف ولكن قابل للعلاج، فبعد التفكيك والتحليل لم يعد الموت حدث يأتي في نهاية الحياة، بل إنه موجود منذ البداية ويحتاج مراقبة مستمرة، ويمنع حتى الغفلة للحظة. الموت يراقبنا ويجب علينا نحن أن نراقبه[٣٠].

إلى جانب تفكيك الموت، قدم المشروع الحديث فكرة تطبيع الموت، «فهو رفيقه الضروري الحتمي؛ فإذا كان التفكيك يستبدل تحديًا قاهرًا، ويحل محله عددًا كبيرًا من المهام المألوفة القابلة للتحقيق في جوهرها، ومن ثم الأمل باجتناب المواجهة مع كلية الرعب النهائي الفريد، فإن التطبيع يحول المواجهة نفسها إلى حدث مألوف، شبه يومي، ومن ثم الأمل في تخفيف وطأة «العيش مع الموت». إن التطبيع يسحب التجربة الفريدة للموت ... ويأتي بها إلى عالم الروتين اليومي للإنسان الفاني، ليحول حياته إلى بروفات دائمة على الموت، ومن ثم الأمل بتحويل «حتمية» الموت إلى تجربة مألوفة، ومن ثم تخفيف الرعب الذي يتسرب من «الغيرية المطلقة» _ الغيبية المطلقة الكاملة للموت»[٣١].

تضعنا حالة القلق من الموت أمام مشكلة الآخر(*)، بوصفه حاملًا للأمراض المعدية والقاتلة، فلم تكن المجموعات الفرعية المريضة معرضة للخطر فحسب، بل غدت هي نفسها مصدرًا للخطر على الجزء المتعافي من المجتمع في حال لم يتم اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنعها،أو عزلها، أو القضاء عليها(٣٢).

لأجل الفكاك من هذا الإحراج، وبعد أن خابت محاولات الحداثة في السيطرة على الموت وتدجينه، اضطرت إلى «قتل الموت» وإن كان بطريقة رمزية، وذلك بواسطة قتل حاملي الأمراض كقتل البكتريا أو الفايروسات وعده بديل رمزي لقتل الموت، وهو بذلك يمثل ممارسة تخدم الحياة وتعززها، من خلال تحديد المادة المضرة؛ وتقييد حرية حركتها؛ وجعلها تحت السيطرة؛ وحصرها في أماكن مصممة خصيصًا؛ ونقلها إلى أماكن بعيدة بما فيه الكفاية لمنع الاتصال بها؛ وأخيرًا تدميرها جسديًا، أو إبادتها جماعيًا، أو حرقها في محارق (هولوكوست)(٣٣).

إذا قامت الحداثة بتفكيك الموت إلى مجموعة من الأمراض الكريهة، ولكن يمكن قهرها بشكل نسبي، فإن نعمة الخلود الجليلة وبعيدة المنال هي التي تم تفكيكها في المجتمع الذي ظهر في نهاية العصر الحديث، وقد تم ذلك التفكيك إلى مجموعة من الأشياء المُرضية تكون دائمًا في متناول اليد، بحيث في خضم نشوة التمتع بها يذوب شبه الكمال التام ويختفي عن الأنظار. فلا يزال الزمن يتحرك، لكن عقارب الساعة ضاعت وسط التيار. الآن لا توجد لحظة تختلف عن لحظة أخرى. فكل لحظة خالدة، أو لا توجد لحظة خالدة؛ فالخلود عابر ومتلاشي مثل بقية الأشياء(٣٤).

يقول باومان: «السرعة، لا الاستمرارية، هي المحك؛ فإذا امتلك المرء السرعة المطلوبة، فبوسعه أن يستهلك الأبدية بأسرها داخل الحاضر المستمر للحياة الأرضية ... وهكذا انتهت معضلة الحياة الفانية في كون خالد، فلا داعي للمرء أن يقلق بشأن الأمور الأبدية بعد اليوم، من دون أن يفقد شيئًا من عجائبها، بل بوسعه أن يستهلك كل ما يمكن أن تهبه الأبدية، كل ذلك في الزمن الذي تستغرقه حياة فانية»(٣٥).

في حياة تتألف من لحظات متساوية، لا معنى للحديث عن الاتجاهات والمشاريع والإنجازات. كل حاضر له نفس الأهمية. وكل حالة تعد خاطفة وعابرة مثلها مثل أي حالة أخرى، وكل واحدة منها _على الأرجح_ قد تكون هي البوابة التي تفتح إلى الأبدية. وبالتالي فإن التمييز بين الدنيوية والأبدية، العابرة والدائمة، الفانية والخالدة، يمثل كل شيء تقريبًا. الحياة اليومية هي بروفة مستمرة لكل من الموت والخلود؛ فوضع أحدهما مقابل الآخر أمر غير مجدي. إذا تم ترويض الموت في عصر الحداثة، فإن الخلود هو من تم ترويضه في عصر ما بعد الحداثة، فلم يعد شيئًا مرغوبًا ومغريًا(٣٦). في الوقت الذي كانت فيه الآمال تعقد على يوم القيامة والبعث، غدت تلك الآمال في عالمنا المتسارع منبوذة، فبإمكان المرء أن يفوز في الحياة الفانية بمكاسب عديدة قد تكون مكافئة للمكاسب التي يمكن أن تمنحها الأبدية(٣٧).

نقول أخيرًا: مهما كانت الأساليب والخطط الرامية إلى تبديد شبح الموت وتسعى إلى إزالته،

سواء بالشكل الذي اتبعه المشروع الحديث «الصلب»، أو بالشكل الذي صممه المشروع ما بعد الحداثي «السائل»، فإن فكرة الخوف من الموت في جوهرها لم تزل قائمة، ولا يمكن طردها من حياة البشر، إذ يقترح باومان في أن الخوف من الموت هي الفكرة الحقة والنموذج الذي يكمن خلفه كل تصور آخر عن الخوف، حتى أن جل التهديدات والأخطار تستمد قوتها من الموت(٣٨).

علاقة الخوف بالشر السائل وشيوع فكرة اللابديل

دشن الإنسان في عصر الحداثة السائلة حالة من فك الارتباط إزاء أية وصايا فكرية على طبيعة حياته وعيشه، فبعد أن تخلى عن الوصايا الميثولوجية(*) المفروضة عليه، آمن بقدرة العقل الحديث في الاجابة عن تساؤلاته وفض الغموض الذي يحيق جانبًا أو أكثر في عالمه، غير إن هذا الأخير لم يتمكن من تحقيق الآمال المرجوة منه، فلم يكن الإنسان قادرًا على تحمل المسؤولية. من هنا انبجست التصورات الحديثة للشر، إلى جانب فقدان أي أمل للنضج بفعل عمليات التحديث الوسواسي التي ترافق الإنسان في عصر السيولة، والتحول من حالة اليقين إلى اللا يقين والقلق والخوف، فلا يمكن اليوم التفكير بالخوف دون التفكير بالشر، فالواحد منهما يستدعي الآخر، وغدونا غير قادرين على التجاوز والتخطي(٣٩).

يميز باومان بين نمطين من الشر: الأول، (الشر الصلب) الذي تم التعبير عنه في الأدبيات الكلاسيكية خاصة الروائية منها مثل رواية فاوست لغوته التي تقف في مقدمة هذه الأعمال، والثاني هو (الشر السائل) المائع الذي يظهر بأشكال مختلفة بالوقت الحالي. كان الشر الصلب مرتبطًا بالأخلاق ويعد بتحقيق العدالة والمساواة في نهاية الطريق، بينما يعتمد الشر السائل على الإغواء وتفتيت الروابط وتجريد الإنسانية من الاختيار، فالشر السائل يسلب منا الحق بالرفض والممانعة، إنه زمن العيش بلا بديل(٤٠).

في حال أردنا فهم الفارق بين الشر السائل والشر الصلب يمكن القول: «الشر السائل يرتدي ثوب الخير والحب، على العكس مما يمكن أن نسميه الشر الصلب القائم على رؤية اجتماعية ترى الأمور من خلال اللونين الأبيض والأسود، حيث يمكننا بسهولة تحديد ماهية الشر في واقعنا الاجتماعي والسياسي»(٤١).

يتمظهر الشر السائل حسب رأي باومان عبر الآتي(٤٢):

١. يستعرض الشر السائل نفسه كأنه تقدم الحياة المحايد والمتجرد من الأهواء.

٢. يسرع الشر السائل التغير الاجتماعي غير المسبوق للحياة بما ينطوي عليه من نسيان وفقدان للذاكرة الأخلاقية.

٣. يرتدي الشر السائل عباءة غياب البدائل وامتناعها.

٤. مع الشر السائل يصبح المواطن مُستهلكًا، ويخفي الحياد القيمي حقيقة الانسحاب.

كانت مشكلة الشر حاضرة وشاخصة في تاريخ الفلسفة، غير إن حضورها كان دائمًا على النقيض من مفهوم الخير، إذ لا يمكن لهما أن يجتمعا ولا أن يقتربا، وهم في صراع غير منقطع، وهو الشكل الذي وسمه باومان بالشر الصلب، لكن هذا الحال اصابته سيول التحديث

وتقلبات القيم، فصار من الممكن إن يجتمع الشر والخير معًا، وفق مبدأ «ربما يكمن الخير في الشر».

يقدم كَنت مبدأين أساسيين وحتميين للعقل العملي، وهي أن «المبادئ العملية هي قضايا تحتوي على تعيين عام للإرادة[٤٣] « ويقول أيضًا: «هكذا أفعل بحيث يمكن لمسلمة إرادتك أن تصح دائمًا وفي الوقت نفسه مبدأ تشريع عام[٤٤]». ويترتب على مفهوم الإرادة الحرة عنده مفهوم الإلتزام، الذي يوسع من دائرة حب الذات لدينا ليشمل بها سعادة الآخرين[٤٥].

مما يعني أنه إذا كان الإنسان، المخلوق الذي وهبه الله _أو الطبيعة_ العقل، يفكر بمنطق كَنت، فإنه سوف يعرف أو يقبل بالتأكيد الخصائص الفئوية لتلك الحتمية، وسيتبناها كمبدأ لسلوكه. تتلخص الضرورة الحتمية في جوهرها في الوصية بمعاملة الآخرين كما تريد أن يعاملوك؛ أو بعبارة أخرى، نسخة جديدة ممار أمر به الكتاب المقدس أن تحب لجارك ما تحب لنفسك[٤٦].

يعني ذلك، وجود قوة عليا تفرض قوة قاطعة على وجود تماثل لا مفر منه على العلاقات بين البشر. يرى باومان أن من غير اليسير على العقل اثبات هذا الافتراض، إذ إن تماثل العلاقات بين البشر ينتمي إلى عالم المعتقدات، أي إلى ما يعتبر مفروغًا منه أو منصوصًا عليه، ولكن ليس له مكان في عالم المعرفة القابلة للاختبار التجريبي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأدلة المتناقضة متعددة، بمعنى انه عند تعزيز كفاءة مهام ومهارات البشر في الوصول إلى أهدافهم، يركز العقل على تحريرهم من الأعباء ومن القيود المفروضة على خياراتهم عن طريق تماثل وتبادل وعكس الأفعال والالتزامات؛ أو بعبارة أخرى، عند إقامة المواقف التي قد تلغى فيها أعباء العقل بهدوء قائمة العوامل ذات الصلة بخياراتهم، يكون هناك مخاوف من أن مسار الأفعال التي يتخذونها قد يرتد إليهم[٤٧].

لأجل ذلك يتساءل باومان عن المصدر الباعث للشر، ويرى أن هناك ثلاثة مسارات يمكن من خلالها تحديد ذلك المصدر:

١.المسار النفسي: وهو المسار المعني في الخوض في الخصوصيات النفسية (أو الرواسب النفسية للسمات الذاتية) المكتشفة أو المفترضة بين الأفراد المعروفين بارتكاب أفعال قاسية، أو الذين قبض عليهم متلبسين، بالتالي فهم يفوقون الأفراد العاديين في ميولهم وحماسهم لارتكاب الفظائع عندما يؤمرون أو يتم إغرائهم بذلك.

٢.المسار الاجتماعي: وهو المسار المعني في التحقيق والبحث في أنواع المواقف الاجتماعية التي قد تدفع «الأفراد الطبيعيين» في ظل «الظروف العادية» أو الأكثر شيوعًا، للانخراط في ارتكاب الأفعال الشريرة التي كانت من الممكن أن تبقى خامدة في ظل ظروف أخرى[٤٨].

٣.المسار الأنثروبولوجي: وهو المسار الذي يبدو أنه بمرور الوقت بدأت أهميته وبشائره تزيد، تمامًا مثلما انحسرت الإمكانات المعرفية للمسارين السابقين. ينص هذا المسار على إن ما حدث مرة يمكن أن يتكرر مرة أخرة، مع تحفظات أضعف من ذي قبل؛ فمع كل حالة متتالية، هناك المزيد من الأمر الواقع، والاعتياد، والقليل من التشاور والتحرك.

إن تكـرار الفظائع ليس ممكنًا فحسـب، بل إنه مرجح، إذ أن فرصة الانتصار في معركة منعها تقل، في حين أن فرصة خسارتها تزيد[٤٩].

مـن خلال المسـارات التي حددهـا باومان نستطيع أن نسـتنتج وجود امكانية لصدور فعل الشـر من أشـخاص طبيعيين، ومن ثم سيكون مصـدر الشـر مجهول، وهذا _كمـا ألمحنا في موضع سـابق_ لب الإشـكال بالنسـبة للوضع البشري في تنظيم الحياة السائل، فباومان يعتقد أن العالم سيكون آمنًا ومريحًا إذا كان الوحوش وحدهـم مـن يرتكبون أفعـالًا وحشـية، فهناك إمكانية لتجنبهم وتلافيهم من خلال التشخيصات التـي يدلي بها علماء النفـس وعلماء الاجتماع ورجال القانون[٥٠].

إن مـا يريـد أن يثبته باومـان ينحصر في مسألة التحرر من الوازع الأخلاقي، ففعل الشر عنـده يرتبـط بالكيفيـة التي يتفاعـل فيها الفرد ضمن البنيـة الاجتماعيـة، أكثر مـن ارتباطه بالصفـات الشـخصية للفاعـل. وهـذا يعني أن الشر في أصله حالة اجتماعية، وليس له جذور شـخصية. وفي حـال غياب السـلطة الأخلاقية يجد فعل الشـر فسحة للظهور حتى عند الأفراد الأسـوياء فـي المجتمـع، مع إضفـاء حالة من الشرعية على التجرد من الإنسانية[٥١].

في سـياق مـوازي ناقشـت حنّـه آرنت[*] مفهوم الشـر، ففي الوقت الذي سمى به باومان امتزاج فعلي الخير والشـر معًا بالشـر السائل، كانـت حنّـه قـد اطلقت عليـه في وقت سـابق «تفاهة الشر»، من خلال مناقشة قضية أدولف ايخمان، الضابط المسئول عن تسفير المعتقلين اليهود إلى الهولوكوست، إذ يبرر ايخمان افعاله على أنها كانت ضمن مبدأ احترام القانون، فهو وحسب اعتقاده كان يمتثل للأوامر الصادرة من السلطة العليا للدولة[٥٢].

ناقـش كَنت _الـذي يدعي ايخمـان قراءته لـه(**)_ هذا الإشـكال من خـلال حديثه عن مفهـوم الواجـب، إذ يقـول: «يقتضـي مفهوم الواجب موضوعيًا أن يكون في الفعل توافقٌ مع القانون، لكنه يقتضي أن يكون في مسـلمته [أي الفعل]، ذاتيًا، احتـرام للقانون بوصفه الطريقة الوحيدة لتعيين الإرادة بالقانون»[٥٣].

يبدو أن ايخمان يسـتند في ممارسـاته على هـذا النص، فهو على المسـتوى الشـخصي لا يملك مشـاعر كـره تجاه اليهود، ولـم تكن لديه أي رغبـة ولا ميـول لفعـل القتـل، وإنما كان فعلـه إطاعـة للقانون الذي يظـن أن في امتثاله له فضيلـة[٥٤]. مع ذلك فقد تغاضى ايخمان عن مفهـوم الإرادة الحرة الذي شـدد عليه كَنت كما اسلفنا سابقًا.

مع ذلك فلا يمكن تعميم موقف ايخمان على جميع حالات تلقي الأوامر من السلطة، إذ يذكر باومان ثلاث حالات لفئات تلقوا أوامر بارتكاب الشر: هناك متحمسين للغاية للمشاركة والتنفيس عن دوافعهم الشـريرة، وهناك البعض رفضوا ارتكاب الشـر مهمـا كانت الظـروف، ومهما كانت نتائج الامتناع عن المشاركة، في حين أن هناك مسـاحة وسطى واسـعة تمثل الأشخاص الذيـن كانوا غير ملتزمين في اتخاذ أي موقف، سواء مع الأخلاق أو ضدها، وفضلوا القيام بما تمليه الحكمة عليهم[٥٥].

فـي ظـل ظـروف الحداثـة السـائلة، التي تتميـز بتخفيـف أو تبديـد التدرجـات الهرمية البيروقراطية للسـلطة، وكذلـك من خلال تعدد

المواقع التي يتم من خلالها التعبير عن الوصايا المتنافسة، نجد أن هناك ارتفاع لمعدلات عدم الاتساق، وتقلص لمعدلات اتباع الوصايا والأوامر التي تنحدر من أعلى، سواء كانت قائمة على مبدأ الاحترام للسلطة أو الخوف منها(٥٦)، وبذلك يمكن القول أن الحداثة السائلة ساهمت بتقليل دوافع ارتكاب فعل الشر إلى حد ما.

صحيح أن الوضع السائل احتفى بالنزعة الفردية، وفكك _ولو بنسبة ما_ سلطة الدولة البيروقراطية، لكنه صدم من جهة أخرى مع حالة اللابديل التي هيئتها الأنظمة البيروقراطية! فاليوم يمكن القول: «إننا نعيش في عالم بلا بدائل، إنه عالم يفترض واقعًا وحيدًا للجميع، إنه عالم يطلق كلمة «مجذوب»، وفي أفضل الأحوال كلمة «غريب الأطوار»، على كل من يعتقدون بأن كل شيء له بديل»(٥٧).

كانت ممارسات الدولة في العصر الحديث تعتمد في تحقيق شرعيتها على تفعيل النزعة الأيديولوجية، وكان المثقفون ومؤسساتهم أبرز موردي صيغ الشرعية لتلك الأنظمة، أما اليوم في عصر الحداثة السائلة تخلت الدولة عمومًا عن المهمة التكاملية تلك، تاركة الأمر لعوامل الجذب المغرية في السوق(٥٨). تمكنت الأنظمة البيروقراطية من إيهامنا في أن أفعالنا تصدر من أرادتنا الحرة، غير أن ما لم نتنبه له يتمحور في أن حريتنا لا تتعدى حرية الاستهلاك التي أريد لنا أن نكون وقودًا له، وعليه فإن كل أشكال التسلط والسيطرة التي تستتر خلف مبدأ الحرية، وما يصاحبها من قلق وخوف وغياب اليقين التي يعيشها الوضع البشري يمكن أن نسميه مجازًا «اللابديل» و»الشر السائل»(٥٩).

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، كيف تمكنت الأنظمة الغربية البيروقراطية من اقناع مواطنيها بضرورة التعايش مع حالة اللابديل هذه؟

يمكن الإجابة على هذا السؤال _على سبيل المثال_ من خلال الكيفية التي تعاملت بها الأنظمة الغربية البيروقراطية مع الإمبراطورية الشيوعية، إذ خلقت الأنظمة البيروقراطية حالة من الرعب والخوف لدى العامة إزاءها وصورتها على أنها تهديد وخطر ينبغي استئصاله، وكان حال الأنظمة يبدو بشكل أفضل كلما تمكنت من جعل التهديد يبدو حقيقيًا ومرعبًا، فلم تكن الصناعة بحاجة إلى حرب فعلية لتزدهر: فالدفعة الأولية المتمثلة في التهديد الشيوعي كانت كافية لضمان التطور الحسابي المتسارع، لتكتسب بعد ذلك زخمها ونموها من ذاتها(٦٠).

مع ذلك فلا يمكن تبرير مأساويات الحياة في ظل نظام السوق الرأسمالي بالنتائج الكارثية للنظم الشيوعية، إذ إن تراجع البديل الشيوعي يكشف النقائص الداخلية لنسخة الحرية المتمحورة حول السوق، والتي كانت في السابق إما خالية من المشكلات، أو كانت تخوض مواجهات مع أنظمة ذات جوانب أقل إغراء عند المقارنة. إن اختزال النقد الجوهري لعلل الحرية في اختيار المستهلك سيجعل من السهل التخلص منها بالوسيلة القديمة المتمثلة في الموافقة على بديل مشكوك فيه، وسيكون من الصعب التغاضي عن التهافت الذي يكشف عنه النقد، بقولنا إنه يمثل أخف الضررين(٦١).

إن إمكانية وجود بديل من عدمها، تمكننا من معرفة الخط الفاصل بين الشر الصلب

والشر السائل، فمع الشر الصلب، وعلى الرغم من عـدم إمكانية فهم حدوث الشـر ولا معرفة اسـبابه، إلا أن هناك إمكانيـة لإيجاد بديل لذلك الحدث، أما بالنسـبة للشـر السـائل فليس هناك إمكانية أيضًا على فهم السـبب، ولا الكيفية التي وقع فيها فعل الشـر، مع ذلـك فليس هناك بديل أبدًا، وأكثر من ذلك قد تفعل الشـر بنفسـك، أو يـراد لك أن تفعله بنفسـك. فهذا هـو باختصار منطق الشر السائل[٦٢].

بقــي أن نقـول أخيرًا بأن هذه ليسـت المرة الأولى التي يظهر فيها شـبح اللابديل، فقد سبق أن كان لـه حضـور فـي مراحـل متفاوتة من التاريـخ البشـري، غيـر أن الجديد هـذه المرة يتمثل في أن حضوره تزامن مع اكتمال عولمة العالـم الذي يحوم حوله هذا الشـبح[٦٣]، وغدت عمليـة احتواء الشـرور وحصرهـا في حدود معينة مهمة غاية فـي التعقيد، علاوة على عدم درايتنا بوقت وأماكن حدوثها.

نحـن نعيش مع السـيولة مـرة أخرى حالة من اللايقيـن، لذلك ينبهنا باومان على ضرورة التعايش مع حالـة اللايقين هذه، وأكثر من ذلك فهـو يرى أن هذه هي المهمة، والمهمة الوحيدة المناطـة للفلسـفة، وفي ذلك يقـول: «إن مهمة الفلسـفة، على العكس تمامًا من التقليد الفلسـفي بأسـره، هي أن تُعلم الناس العيش في حالة من عـدم اليقيـن، لا أن تبث الهـدوء والاطمئنان، بل أن تنشـر الإزعاج، فــي كل مكان، ومع كل خطـوة، وفي كل مناسـبة، ومن دون مناسـبة، وبسـبب ومن غير سـبب، لا بد من الاستهزاء بأرسـخ الأحكام المقبولـة وبيـان التناقضات، وعندئذ سيرى المرء مجرى الأمور»[٦٤].

بعد أن بينا مفهوم الشـر السـائل وما يتبعه، نسـتطيع أن نشـخص سـقوط باومـان في فخ تناقـض المصطلح، فكما بينا آنفًا، يحدد باومان مفهوم الشر السـائل بأنه الحالة التي يتداخل أو يذاب فيها فعلي الشـر والخير معًا، وهذه الحالة تنتمي إلى مشـروع الحداثة السائلة، في الوقت الذي نجد فيه حنة آرنت تبين معنى تفاهة الشر، بأنه الفعل الناتج عن سـلطة النظام، والذي كما بينـا مع حالة إيخمان قد يتداخل أيضًا فيها فعلي الخير والشر معًا، ففعل الهولوكوست شر، غير أنـه في ذات الوقـت يُدرج ويبرر لـه على إنه تطبيـق للقانون وإطاعة للنظام، وهو فعل خير، وينتمـي إلى المشـروع الحديـث، وهو عصر العلـم والتقنيـة والأنظمـة البيروقراطيـة التي يسميها باومان الحداثة الصلبة.

الخاتمة

فــي نهاية بحثنا، وبعـد الاطلاع على رؤى زيجمونت باومان، يمكن القول بأننا نعيش زمن اللايقيـن، وأن المخاوف تحيطنا من كل جانب، وهي في حالة تولد مستمر وذاتي كما بينا، وكل مسـاعي المشـروع الحديث للخلاص وتحقيق الأمن الوجودي تهافتت وتبددَت بشـبح الموت. فالموت أعظم الشـرور وأكثرها غموضًا، فهو القلق الـذي لا نعرف مصـدره ولا حقيقته ولا لحظـة وقوعه، لأجل ذلك عمـل العقل الحديث لتجنـب هذا الإحراج إلى القـول بتفكيك الموت من خـلال نقله مـن سـاحة الحقائـق الطبيعية والإلقاء به إلى سـاحة الأفعال الإنسـانية، على اعتبـار أن وقوعـه يرجع إلى الفعل الإنسـاني نفسـه. إلى جانب ذلك عمد العقـل الحديث إلى القـول بالقتـل الرمـزي للموت بواسـطة تقييد حركـة كل ما من شـأنه أن يؤدي إليه. من جهة أخرى عمل المشـروع ما بعد الحداثي السـائل

إلــى تفكيك الخلــود باعتباره حدث متلاشــي لا وجود دائم له.

كما تبين لنــا عبر تفريق باومان بين مفهوم الشــر الصلب والشــر الســائل، أننا مع الشــر الصلب أمام ثنائية واضحة تمايز بين فعل الخير وفعل الشر، ولا وجود لمناطق مشتركة بينهما، فالخير بياض، والشــر سواد، على نقيض الشر الســائل الذي يطرح اللون الرمــادي من خلال إمكانيــة امتزاج فعلي الخير والشــر معًا، لذلك كان الشــر الســائل. كما أن الشر الصلب يحمل معه فكرة البديل وإمكانية التجنب والاستعاضة، على خلاف الشــر الســائل الذي يأتي بلا بدائل وأكثــر من ذلك فإننــا قد نرغم على ممارســته بأنفســنا. لذلك فإن مخاوفنا بلا مصدر ولا جهة قدوم لها، فربما نكون نحن هذه الجهة.

كمــا إن مــا ذهب إليــه باومان فــي إمكانية الخــلاص من مخــاوف هذا العالــم ولا يقينيته، من خلال فكرة الحشد والانضواء مع الجماعة، قــول ينطوي على تناقض واضــح، فعالم اليوم هــو عالم التفرد والعزلــة، ولا مجال فيه لفكرة التضامن الاجتماعي، وحتى في حال تم تداولها على المســتوى النظري، فإنها ستبقى يوتوبيا لا يمكن إســقاطها على الواقــع. وعليه فإننا نعيش اليــوم في عالم بلا بدائل وعالــم بلا يقين، لذلك فلزامٌ علينــا تقبل هذا الوضع الإنســاني الرائج والتكيف والتعايش معه.

الهوامش

(١) ينظر: زيجمونت باومان، الخوف الســائل، ترجمة: حجــاج أبو جبر، تقديم: هبه رؤوف عزت، الشــبكة العربية للأبحاث والنشــر، بيــروت، ط١، ٢٠١٧، ص٤٥.

(٢) هبــه رؤوف عــزت، مقدمة كتاب الحداثة الســائلة، ترجمة: حجــاج أبو جبر، الشــبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٦، ص١٤.

(٣) زيجمونــت ياومــان،، الحداثــة والإبهــام، ترجمة: حجاج أبو جبــر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٨، ص٣٥.

(*) يذكــر أرســطو فكرته عن الوســط الذهبي في كتابة الأخلاق إلى نيقوماخوس، إذ يعرفها بأنها «الاعتدال في الشــيء من غير إفراط أو تفريط، أي أنه الوسط المرغــوب بيــن النقيضيــن، إحداهمــا عــن مبالغة والآخر عن تقصير». فالشــجاعة على سبيل المثال وســط بين التهور والجبن، فإن زادت فهي شجاعة، وإن نقصة فهي جبن. ينظر: أرسطو، الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمة: حنين بن اســحاق، المقالة ٢، ف٥، ص٩٤ وما بعدها.

** أرســطو طاليــس (٣٨٤-٣٢٢ق.م): يعــد واحدًا من أبرز وأهم الفلاســفة على الإطلاق. التحق بأكاديمية أفلاطون واســتمر فيها قرابة العشــرين عامًا، حتى وفاة أســتاذه. لــم يكن أثينيًا بل جاء من اســطاغيرا، وانتشــب لأكاديمية أفلاطون وبقي فيها قرابة ثمانية عشــر عامًا، وبعــد موت أفلاطون غــادر إلى أثينا. وعاد إليها بعد أثنا عشــر عامًا وأســس فيها مدرسته الخاصة لتعليم الفلسفة والبايولوجيا وسميت باللقيون. ومــن أشــهر مؤلفاتــه: ((الأخــلاق النيقوماخية))، و((السياســة)) و((الأرغانــون))، و((الســماع الطبيعــي))، و((في الكون والفســاد)). ينظر: علي عبود المحمداوي، الفلســفة السياســية: كشف لما هو كائــن وخوض في ما ينبغي للعيش معًا، منشــورات ضفــاف والأمــان والاختــلاف وعدنــان، بيــروت والرباط والجزائر وبغداد، ط١، ٢٠١٥، ص٦٠.

(٤) هبــة رؤوف عــزت، مقدمة كتاب الحداثة الســائلة، ص١٦.

(٥) زيجمونت باومان، الحداثة والإبهام، ص٢٠.

(٦) زيجمونت باومان، الخوف السائل، ص٢٤.

(٧) ينظر: زيجمونت باومان، الخوف السائل، ص٢٥.

(٨) زيجمونت باومان، الأزمنة السائلة: العيش في زمن اللايقين، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رؤوف عزت، الشــبكة العربية للأبحاث والنشــر، بيروت، ط١، ٢٠١٧، ص٣٣.

(٩) See: Zygmunt Bauman and Leonidas Donskis, Moral Blindness: The Loss of Sensitivity in Liquid Modernity, Polity

Press, Cambridge, ٢٠١٣, P.١٠٣.

(١٠) ينظر: زيجمونت باومان، الخوف السائل، ص٢٤.

(١١) ينظر: زيجمونت باومان، الخوف السائل، ص٣٠.

(١٢) المصدر نفسه، ص٢٦.

(13) See: Zygmunt Bauman and Leonidas Donskis, Moral Blindness: The Loss of Sensitivity in Liquid Modernity, p.96-97.

(١٤) ينظر: زيجمونت باومان، الخوف السائل، ص٤٦.

(15) Zygmunt Bauman and Leonidas Donskis, Moral Blindness: The Loss of Sensitivity in Liquid Modernity, p.108.

(١٦) ينظر: زيجمونت باومان، الأزمنة السائلة: العيش في زمن اللايقين، ص٣٧.

(17) See: Zygmunt Bauman and Leonidas Donskis, Moral Blindness: The Loss of Sensitivity in Liquid Modernity, p.107.

(١٨)ينظر: زيجمونت باومان، الأزمنة السائلة: العيش في زمن اللايقين، ص٣٥.

(19) See: Zygmunt Bauman and Leonidas Donskis, Moral Blindness: The Loss of Sensitivity in Liquid Modernity, p.96-97.

(٢٠)ينظر: زيجمونت باومان، الخوف السائل، ص٤٦-٤٧.

(٢١) ينظر: زيجمونت باومان وليونيداس دونسكيس، الشر السائل: العيش مع اللابديل، ترجمة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رؤوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٨، ص٤٢.

(٢٢) ينظر: زيجمونت باومان، الخوف السائل، ص٨٣.

(23) See: Zygmunt Bauman and Leonidas Donskis, Moral Blindness: The Loss of Sensitivity in Liquid Modernity, p.97-98.

(24) Ibid, p.101.

(25)زيجمونت باومان، الخوف السائل، ص79.

(26) See: Zygmunt Bauman, Mortality Immortality and Other Life Strategies, Polity Press, London, 1992, p.129.

(27) Ibid, p.161.

(28) Ibid, p.137-139.

(٢٩)ينظر: زيجمونت باومان، الخوف السائل، ص٦٩.

(30) See: Zygmunt Bauman, Mortality Immortality and Other Life Strategies, p.140.

(٣١)ينظر: زيجمونت باومان، الخوف السائل، ص٧١.

(*) إن القلق المستمر من الموت بالنسبة للعقل الحديث يجعلنا نعود إلى فكرة سارتر عن الآخر باعتباره جحيمًا بما يحمله من أمراض معدية وقاتلة لذواتنا المضطربة، كون الآخر أو الغريب المختلف عن هويتنا يمثل المجهول المكتنز بكل ما يمكن أن يكون سببًا لقتلنا. مع ذلك فالآخر بالنسبة لسارتر، وإن وصفه بالجحيم، فإنه ضروري للكشف عن ذواتنا. للتوسع أكثر في هذا الشأن، ينظر: جان بول سارتر، جلسة سرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، تقديم: زكريا إبراهيم، دار النشر المصرية، القاهرة، دط، ١٩٥٧.

(32) See: Zygmunt Bauman, Mortality Immortality and Other Life Strategies, p.154.

(33) Ibid, p.156.

(34) Ibid, p.164.

(٣٥) زيجمونت باومان، الحياة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١-٢٠١٦، ص٢٩.

(36) See: Zygmunt Bauman, Mortality Immortality and Other Life Strategies, p.168-169.

(٣٧) ينظر: زيجمونت باومان، الحياة السائلة، ص٢٩.

(٣٨) ينظر: زيجمونت باومان، الخوف السائل، ص٨٢.

* الميثولوجيا (الأساطير): شكل من الأشكال الشفاهية للفولكلور من أخص خصائص القدماء. والأساطير هي حكايات تولدت في المراحل الأولى للتاريخ، لم تكن صورها الخيالية (الآلهة، الأبطال الأسطوريون، الأحداث الجسام إلخ) إلا محاولات لتعميم وشرح

الظواهــر المختلفة للطبيعة والمجتمــع. للمزيد ينظر: لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين، الموسوعة الفلسفية، ص٢٣.

(٣٩) ينظر: الحســن أخــدوش، الخوف الســائل، صناعة الرُّهاب المعاصر، مجلة الدوحــة، العدد ١٣٣، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة، ٢٠١٨، ص٤٧.

(٤٠) ينظــر: محمــد الجلالــي، الشــر الســائل: عيش مع اللابديل، مجلــة الدوحة، العــدد ١٣٣، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة، ٢٠١٨، ص٤٢.

(٤١) زيجمونــت باومــان وليونيداس دونســكيس، الشــر السائل: العيش مع اللابديل، ص٢٥.

(٤٢) المصدر نفسه، ص٢٥.

(٤٣) إمانويل كنــت، نقد العقل العملي، ترجمة: غانم هنا، المنظمــة العربية للترجمــة، بيــروت، ط١، ٢٠٠٨، ص٦٥.

(٤٤) المصدر نفسه، ص٨٣.

(٤٥) المصدر نفسه، ص٨٩.

(46) See: Zygmunt Bauman, Collateral Damage: Social Inequalities in a Global Age, Polity Press, Cambridge, 2011, P.129-130.

(47) Ibid, P.130.

(48) Ibid, P.133.

(49) Ibid, P.142.

(50) Ibid, P.134-135.

(٥١)ينظــر: زيجمونت باومان، الحداثة والهولوكوســت، ترجمــة: حجاج أبــو جبر ودينــا رمضــان، مدارات للأبحاث والنشــر، القاهــرة، ط١، ٢٠١٤، ص٢٦١-٢٦٢.

* حنــه ارنــت (١٩٠٦-١٩٧٥م): ولــدت حنــه ارنت في هانوفر. وعندما بلغت ســن الثالثة عاد أبواها إلى تلك البلدة الهادئة على بحر البلطيق، حيث عاشا طفولتهما، وهي بلــدة كونيغزبرغ. وعندما بلغت الســابعة توفي أبوها من مرض الزهري. وفي الســنة نفسها ١٩١٣م توفــي جدها لأبيها، والــذي كان بمقام الأب الثاني لها. وفي عام ١٩٢٤م ذهبــت أرنت إلى جامعة ماربورغ لدراسة الفلسفة تحت إشراف هايدغر، وكانت لها معه علاقــة عاطفية. ويظهر تأثيــره على عمل ارنت ليس فــي تمجيدها لليونان فحســب، بل أيضًــا في الطريقة الاتيمولوجيــة الاشــتقاقية التــي تســتخدمها في كثير مــن الأحيان لتثبيت المعنى الدقيق للمفاهيم الرئيســة، مثــل مفهــوم العمل. ومن أبــرز مؤلفاتهــا: ((ايخمان في القــدس)) و((أصول الأنظمة الشــمولية)) و((في الثورة)) و((حياة الفكر)) و((ما السياســة؟)) وغيرها. للمزيد ينظر: جون ليشــته، خمســون مفكرًا أساســيًا معاصرًا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، ترجمة: فاتن البســتاني، المنظمة العربية للترجمــة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م، ٣٦٨.

(٥٢) ينظــر: حنّه آرنت، ايخمان فــي القدس: تقرير حول تفاهة الشر، ترجمة: نادرة السنوسي، تقديم: علي عبود المحمداوي، ابن النديم للنشــر والتوزيــع، دار الروافد الثقافية – ناشــرون، الجزائر، بيروت، ط١، ٢٠١٤، ص١٨٧.

** تورد حنّه آرنت ادعاء ايخمان قراءته لكَنت في أكثر من موضع، للمزيد ينظر: حنّه آرنت، ايخمان في القدس: تقرير حول تفاهة الشر، ص١٨٨-١٨٩.

(٥٣) إمانويل كَنت، نقد العقل العملي، ص١٥٦.

(٥٤) ينظــر: حنّه آرنت، ايخمان فــي القدس: تقرير حول تفاهة الشر، ص٣١٧.

(55) See: Zygmunt Bauman, Collateral Damage: Social Inequalities in a Global Age, P.139.

(56) Ibid, P.140.

(٥٧) زيجمونــت باومــان وليونيداس دونســكيس، الشــر السائل: العيش مع اللابديل، ص٢٣.

(58) See: Zygmunt Bauman, Intimations of Postmodernity, Routledge, London & New York, 1992, P.184.

(٥٩) زيجمونــت باومــان وليونيداس دونســكيس، الشــر السائل: العيش مع اللابديل، ص٢٩.

(60) See: Zygmunt Bauman, Intimations of Postmodernity, P.175-176.

(61) Ibid, P.184.

(٦٢) زيجمونــت باومــان وليونيداس دونســكيس، الشــر السائل: العيش مع اللابديل، ص١١٦.

(٦٣) المصدر نفسه، ص٣٧.

(٦٤) زيجمونت باومان، الحداثة والإبهام، ص١٠٩.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر

المصادر العربية

١. إمانويـل كنت، نقد العقل العملـي، ترجمة: غانم هنا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٨.

٢. الحسـن أخدوش، الخوف السـائل، صناعـة الرُّهاب المعاصر، مجلة الدوحة، العـدد ١٣٣، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة، ٢٠١٨.

٣. حنّه آرنت، ايخمان في القدس: تقرير حول تفاهة الشر، ترجمة: نادرة السنوسي، تقديم: علي عبود المحمداوي، ابـن النديم للنشـر والتوزيـع، دار الروافـد الثقافية – ناشرون، الجزائر، بيروت، ط١، ٢٠١٤.

٤. زيجمونت باومان وليونيداس دونسكيس، الشر السائل: العيـش مع اللابديل، ترجمة: حجـاج أبو جبر، تقديم: هبة رؤف عزت، الشـبكة العربية للأبحاث والنشـر، بيروت، ط١، ٢٠١٨.

٥. زيجمونت باومان، الأزمنة السـائلة: العيش في زمن اللايقين، ترجمـة: حجاج أبو جبر، تقديم: هبة رءوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٧.

٦. زيجمونت باومان، الحياة السـائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشـبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١ـ ٢٠١٦.

٧. زيجمونـت باومان، الخوف السـائل، ترجمة: حجاج أبو جبـر، تقديم: هبه رءوف عزت، الشـبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٧.

٨. زيجمونـت ياومان،، الحداثة والإبهام، ترجمة: حجاج أبو جبـر، المركز القومـي للترجمة، القاهـرة، ط١، ٢٠١٨.

٩. محمد الجلالي، الشر السائل: عيش مع اللابديل، مجلة الدوحة، العدد ١٣٣، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة، ٢٠١٨.

١٠. هبـه رؤوف عـزت، مقدمة كتـاب الحداثة السـائلة، ترجمـة: حجاج أبو جبر، الشـبكة العربيـة للأبحاث والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٦.

المصادر الإنكليزية

1. Zygmunt Bauman and Leonidas Donskis, Moral Blindness: The Loss of Sensitivity in Liquid Modernity, Polity Press, Cambridge, 2013.
2. Zygmunt Bauman, Collateral Damage: Social Inequalities in a Global Age, Polity Press, Cambridge, 2011.
3. Zygmunt Bauman, Intimations of Postmodernity, Routledge, London & New York, 1992.
4. Zygmunt Bauman, Mortality Immortality and Other Life Strategies, Polity Press, London, 1992.

(*) يذكـر أرسـطو فكرته عن الوسـط الذهبـي في كتابة الأخلاق إلـى نيقوماخوس، إذ يعرفها بأنها «الاعتدال في الشـيء من غير إفراط أو تفريط، أي أنه الوسـط المرغوب بين النقيضين، إحداهما عن مبالغة والآخر عن تقصير». فالشـجاعة على سبيل المثال وسط بين التهـور والجبن، فإن زادت فهي شـجاعة، وإن نقصة فهي جبن. ينظر: أرسطو، الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمة: حنين بن اسحاق، المقالة ٢، ف٥، ص٩٤ وما بعدها.

(*) إن القلـق المسـتمر من الموت بالنسـبة للعقل الحديث يجعلنا نعود إلى فكرة سارتر عن الآخر باعتباره جحيمًا بما يحمله من أمراض معدية وقاتلة لذواتنا المضطربة، كـون الآخـر أو الغريـب المختلف عـن هويتنا يمثل المجهـول المكتنز بكل ما يمكن أن يكون سـببًا لقتلنا. مع ذلك فالآخر بالنسبة لسارتر، وإن وصفه بالجحيم، فإنه ضروري للكشف عن ذواتنا. للتوسع أكثر في هذا الشأن، ينظر: جان بول سارتر، جلسة سرية، ترجمة: مجاهد عبد المنعـم مجاهد، تقديم: زكريا إبراهيم، دار النشر المصرية، القاهرة، دط، ١٩٥٧.

Fear as a product of liquid evil: A reading of Zygmunt Bauman›s visions

Prof. Dr. Akram Mutlaq Muhammad

M. M. Mustafa Murshid Jubayr

Abstract

This research deals with the concept of Liquid fear among the Polish thinker Zygmunt Baumann, by examining the outputs of this concept; Baumann believes that fear and uncertainty are a byproduct of fluid evil. This paper also reveals the concept of death as the main source of human fears, and how the modern and postmodern mind dealt with this event, in addition to clarifying the idea of no alternative, given that the contemporary human situation cannot escape from the state of dispersion and loss in which it lives.

Key words: Liquid Fear, Liquid Evil, Solid Evil, Death, Irreversible